كيف تُخترق العقول وتُعاد هندسة المجتمعات؟

تاريخ النشر :١٩ يوليو ٢٠١٥

بقلم: د. زكريا خنجي

ما زلت أذكر أنه في منتصف السبعينيات من القرن الماضي قرأت للمرة الأولى كتاب (قادة الغرب يقولون .. دمروا الإسلام أبيدوا أهله) للمؤلف جلال العالم، تعرفت من خلال هذا الكتاب على ذلك المنهج المنظم الذي سلكه علماء وساسة الغرب لما كان يعرف آنذاك «الغزو الفكري» للتحكم في الدول العربية والإسلامية، حيث روى المؤلف الكثير من أقوالهم ومواقفهم، ونحن نقتبس هنا بعضا من تلك الأقوال التي تخدم فكرة مقالنا.

يقول مسئول وزارة في الخارجية الفرنسية عام 1952 «فلنعط هذا العالم الإسلامي ما يشاء، ولنقوّ في نفسه الرغبة في عدم الإنتاج الصناعي، والفني، حتى لا ينهض.. الخ».

يقول صموئيل زويمر رئيس جمعيات التبشير في مؤتمر القدس للمبشرين المنعقد عام 1935 «إن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريما.

إن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها.

يواصل.. ويقول «لقد هيأتم جميع العقول في الممالك الإسلامية لقبول السير في الطريق الذي سعيتم له، ألا وهو إخراج المسلم من الإسلام، إنكم أعددتم نشْأً لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، أخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإسلامي مطابقًا لما أراد له الاستعمار، لا يهتم بعظائم الأمور، ويحب الراحة، والكسل، ويسعى للحصول على الشهوات بأي وسيلة، حتى أصبحت الشهوات هدفه في الحياة».

يقول غلادستون «ما دام القرآن موجودًا، فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق».

يقول المبشر وليم جيفورد بالكراف «متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيدًا عن محمد وكتابه».

ولست هنا بصدد مناقشة ما جاء في الكتاب، وماذا حدث بعد ذلك، ولكن ما أريد أن نصل إليه هو أن نفهم ما كان يحاول الغرب أن يفعله لمحاولة الوصول إلى العقل العربي، فمن الملاحظ أنه كان يحاول أن «يزرع فكرة»، نعم فأنا أقصد أن أطلق مصطلح «زراعة فكرة في العقول والأدمغة البشرية».

فماذا فعل الغرب ؟

ببساطة، زرع فكرة في الاتجاهين، الاتجاه الأول لأبناء الغرب حيث حثهم على محاربة الإسلام وزرع في عقولهم فكرة أن هذا الدين إن امتد فإنه سيحطم حضارتهم وحياتهم، وأنه دين شرير بجميع المواصفات، ومن الملاحظ أن أبناء الغرب مازالوا يتعاملون مع الإسلام من هذا المنطلق.

أما الاتجاه الآخر فكان لأبناء الدول العربية الإسلامية، كانت الفكرة أن هذا الدين لم يعد يصلح لهذا العصر الذي نعيشه، فالإسلام عاجز عن توفير الحضارة التي تتماشى مع هذا العصر، فلا ينبغي الاستمرار في التمسك به.

إلى أي مدى نجح الغرب في زرع هذه الأفكار؟ وإلى أي مدى بدأ يجني محصوله؟ هذا متروك لك عزيزي القارئ.

إن مصطلح «زراعة فكرة في العقول» على الرغم من أنه غريب نوعًا ما، إلا أنه حقيقة، فلا يمكن لأي كان أن يخترق العقول وأن يعيد هندسة المجتمعات إلا بزراعة فكرة ولو كانت في البداية صغيرة، ولكنها بفعل عامل الزمن ستصبح شجرة، فلا يمكن مثلاً أن تأتي لأحد الأشخاص وتحاول إقناعه بشكل مباشر أن معتقده الديني خاطئ، ترى ماذا سيحدث؟ غالبًا ما ستجد ردة فعل قوية، والسبب أن المعتقد الديني فكرة أساسية وعميقة، وأغلب أفكار الإنسان مرتبطة بهذا المعتقد، بل إن جميع قراراته في الأصل يأخذها على أساسه، فيرى الصواب والخطأ من خلال هذا المعتقد، وبالتالي بمجرد أن تلقي عليه فكرة أن معتقده خاطئ يجب أن تتوقع ردة فعل قوية لأنك تهدد كياناً فكرياً عميقاً في ذهنه.

ومثال آخر:

لنفرض أنك تجلس الآن مع أحد أصدقائك وقمت بسؤاله: «هل تريد أن تتناول معي العشاء أم لا؟»، فمن الطبيعي أن تكون الإجابة إما (نعم)، وإما (لا). وذلك بسبب أنك خيرته بين القبول والرفض فقط.

ولكن لنفترض أنك قلت له: «هل ترغب بتناول العشاء بعد مشاهدة الفيلم أم قبل مشاهدته؟»، فسيكون جواب صديقك إما.. «سأتناول قبل الفيلم» وإما.. «سأتناول بعد الفيلم» وهكذا نكون قد أجبرناه على تناول العشاء بدون أن يشعر وبطريقة ذكية، وذلك بتشتيت ذهنه بالفيلم.

وفي الحقيقة تبدو الجملتان متشابهتين، فكلتاهما الهدف منها أن أتعشى مع صديقي، لكن في الحقيقة هناك اختلاف واضح اذا دققت جيدًا، فإنك في الجملة الأولى سألته إن كان يريد أن يتعشى، ففي هذه الحالة عقل صديقي سوف يأخذ هذه المسألة على أنها سؤال: إن كان فعلاً يريد أن يتعشى أم لا؟ بينما في السؤال الآخر أنا لم أعطه الخيار لكي يتعشى وإن كان الظاهر من السؤال أنه كذلك، لكن في الحقيقة أعطيته خيارا آخر وهو أنه سيتعشى فعلاً لكن قبل أو بعد أن ندخل السينما ؟ بمعنى آخر العشاء لم يصبح قضية اختيارية الآن.

وهذه الفكرة على الرغم من بساطة طرحها فإنه يجب أن يكون معلومًا اننا في هذا الموضوع لا نتحدث عن شخص يتمتع ببعض مهارات الاحتيال من خلال خبرة اكتسبها مع مرور الوقت والتعامل مع المجتمع، لا؛ بالطبع فشخص كهذا يمكن اعتباره إنسانا ساذجا، بل ساذجا جدًا، إنما نتحدث عن أناس لا يعتمدون على الخبرة فقط، وإنما العلم والخبرة معًا، إننا نتحدث عن شخص أو أشخاص يستطيعون بنظرة في عينيك أن يعرفوا ما شعورك الآن، وما الذي تفكر فيه، نتحدث عن شخص أو أشخاص يمتلكون من الذكاء ما يكفي لإبقائك تحت السيطرة ومن دون أن تشعر تمامًا.

كيف نخترق الأدمغة البشرية ونزرع فكرة؟ هل الأمر هكذا ببساطة أن نفتح غطاء المخ ثم نضع فيه فكرة ثم نغلق الغطاء وننتظر ؟

إنها هكذا، ولكنها عملية معقدة، إنها مثل زراعة الأرض تمامًا، في خطواتها والصبر، والأهم من كل هذا الاهتمام في عامل الزمن، فنحن نضع فكرة في الدماغ البشري، سواء كان فردًا أو مجتمعا، سواء كانت الفكرة إيجابية أو سلبية، ثم نغذي هذه الفكرة، ونرعاها، ونحاول بين فترة وأخرى أن نرويها بالماء، وأن نسمدها ببعض المنشطات، وننثر عليها بعض المبيدات للقضاء على أي مقاومة للفكرة أو نموّ أفكار جانبية طفيلية لا نرغب فيها، نحاول من خلال تلك المبيدات أن نقضي على كل مقاومة، ونتخلص من الأعشاب الطفيلية التي يمكن أن تسهم في قتل فكرتنا، ونراعي الفكرة بأكبر قدر من

الرعاية والاحتضان، حتى تنضج، ويجب ألا نقطف الثمرة قبل أن تنضج وتصبح جاهزة للأكل.

وطبعًا يمكننا أن نستخدم في ذلك كل الوسائل الممكنة من نشرات الأخبار، والبرامج، والمسلسلات، والأفلام وخاصة تلك التي تعبث بالمشاعر الإنسانية، فيعزف من يقفون خلفها على أوتار المشاهدين الحسّاسة، فيضربون ضربتهم التي قد تكون قاصمة، من دون دراية من الملتقي.

إن إدخال أو زراعة فكرة في العقل اللاواعي للإنسان بحيث تكون هذه الفكرة – على مر الزمن – فكرة ثابتة يتعامل من خلالها، تعد أحد أخبث الأساليب لاختراق العقول والسيطرة عليها، وبالتالي إعادة هندسة المجتمع للتحكم في مصيره، عندئذ يمكن زراعة أي أفكار في الأدمغة التي أصبحت جاهزة للاختراق، مما يسلبهم حق حرية الاختيار وحرية التحكم في قراراتهم من دون أن يشعروا.

ولكن كيف نقوم بزراعة فكرة معينة في العقل اللا واعي؟ وهل الإنسان يمتلك عقلين واعيا ولا واعيا؟ ما الأساس الذي تقوم عليه فكرة زراعة الأفكار؟ هذا حديث آخر.